الجزء الثالث — المجلد الحادي والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٦ — ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٧٥

مع حافظ ابراهيم

يوم الخميس في ١٨ آذار سنة ١٩٢٦ و ٤ رمضان سنة ١٣٤٤

كنت ضيفاً عند صديقي حسين بك الحسيني في حلوان ، فقال لي : يسكن بالقرب منا حافظ ابراهيم ، وقد أخبرته بأنك ضيف عندنا ، وسيأتي الليلة للسلام عليك . وجلسنا بعد الإفطار (والوقت رمضان) نتحدث بشعر حافظ ، وكان في المجلس معنا شيخ بعمامة بيضاء اسمه الشيخ محمد رأفت . ولم يمض زمن طويل حتى سمعنا من الفسحة المؤدية الى غرفة الاستقبال كلاماً بصوتٍ عالٍ ، فقال صاحب الدار : هذا حافظ بك ، ولم يكد يتم كلامه حتى دخل حافظ ابراهيم وسلّم ، ووقع نظره على الشيخ الذي لم يكن بعيداً من الباب ، فقال له وهو واقف : أأنت هنا يا شيخ ؟ وتهذر ؟ أما كلت الشامي بالسجم والجناس وأريته براعة المصريين ؟ ثم دنا مني وصافحني وجلس بجانبي . وهو طويل مستقيم القامة ضخم الأعضاء أسمر اللون خفيف شعر الرأس والشاربين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يغلب عليه الشيب وتبدو على وجهه ملامح الإجهاد والتعب ، يضع على عينيه نظارة منوطة بأذنيه ، تبدو من خلفها عينان صغيرتان ظاهر على انسانيها وجفونها أثر الكلال ، ولبسه حسن من غير تنوق ، ولا يكاد السيكار يقع من بين إصبعيه .

جلس وبيده عصا غليظة يقرع بها الأرض أثناء كلامه وقال لصاحب الدار : أكرم ضيفك يا حسين ، أين الشاي ، أسرعوا بالقهوة ، هاتوا الخلطة (نوع من الأفاويه السائلة تضاف الى الشاي والقهوة كالعنبر أو الزعفران) ، أين السكاير ؟ لماذا لم تأت بضيفك وتأكلوا عندي ؟ ثم التفت إليّ وقال : لا بد من أن تأكل عندي ، قل لي ماذا تريد أن أصنعه لك من الطعام ، قلت : الفول المدمس ، فقال : الله الله أأنت أتيت الى مصر لتأكل المدمس ، قلت أشكرك على كل حال فأنا مسافر غداً ، قال : ما يصح .

ودخل على اثر حافظ فتى بدين حسن الوجه أبيض اللون مشرب بحمرة ، سمعتهم يدعونه بالسيد علي ، فجلس غير بعيد من الباب .

كان مجلس حافظ بجانبي ويليه صاحب الدار وكان بيده ديوان حافظ ، فقال له : كنا نقرأ شعرك قبل أن تأتي . فقال حافظ : ليس في الجزء الأول من الديوان شيء ، وفي الجزء الثاني والثالث أشياء حسنة منها : (غادة اليابان) :

لا تلم كفي إذا السيف نبا صحّ مني العزم والدهر أبى

ورثاء الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النضراتِ

و (الأمتان تتصافحان) :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ هنا العلى وهناك المجد والحسب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و (زلزال مسينا) :

نبئاني إن كنتما تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان

و (رأس السنة الهجرية) :

لي فيك حين بدا سناك وأشرقا أملٌ سألت الله أن يتحققا

وأشباه هذه ، ولقد نظمت قصيدة جديدة أعددتها ليوم افتتاح الجامعة . فقال له الحسيني : أسمعنا إياها . فأجاب : ادفع الفلوس حتى تسمع ، كل شيء له ثمن .

قلت : وإذا سألتك أنا أن تنشدنا .

قال : هيهات ، لا أنشد إلا بالفلوس .

قلت : ماذا عسى يعطيك رجل مهاجر منكوب .

قال : وأنا منكوب في بلدي .

قلت : فاجعل الثمن نسيئة .

قال : مَن لي بالوفاء ؟ ولكن أراني أضرب في حديد بارد ، كل شيء تغير في هذه الحياة ، كان الأمير في الماضي يقول : من في الباب من الشعراء ؟ أفيقول الشاعر اليوم : من في الباب من البكوات ؟ وعلى كل حال فان أبيتم إلا منعاً فأنا أعطي .

ثم أنشد مختارات من شعره ، منها قصيدة زلزال مسينا وكان شديد الإعجاب بهذا البيت منها :

خسفتْ ثم أغرقتْ ثم بادتْ قضي الأمر كله في ثوانِ

أنشده فخوراً وقال : بيت واحد أحاط بما منيتْ به مسينا ، وهو على شدة إيجازه قد صور الفاجعة تصويراً كاملاً .

ثم أنشد أبياتاً من قصيدة في مظاهرة للسيدات كانت سنة ١٩١٩ أولها :

خرج الغواني يحتججـــن ورحت أرقب جمعهنَّهْ

ومنهـا :

وإذا بجيشٍ مقبـلٍ والخيل مطلقة الأعنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإذا الجنود سيوفها قد صُوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا عاتٍ تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن مُنّه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه

وقال : لم أدفع هذه القصيدة الى صحيفة من الصحف ، ولم أقل إنها لي ، ولكن رواها الناس وتناشدوها وعرفوا أنها لي لأنه – كما قال لي أحد الإخوان – لا يقول مثل هذه القصيدة في مثل هذا المقام ويختار لها هذا الوزن وهذه القافية إلا من كان واسع الرواية للشعر مطلعاً على تفنن الشعراء في اختيار الأوزان الملائمة لمعانيها . ألم تطلع على هذه القصيدة ؟

قلت : (مْبَلى) (١) وكأنه لم يسمع الميم الساكنة في أولها .

فقال بصوت أجش : اسمع العربي الفصيح يا حسين ، قال (بلى) ولم يقل (نعم) في جواب هذا الاستفهام المسبوق بالنفي ، ولو قال (نعم) لانعكس المعنى . فقلت في نفسي : رمية من غير رام .

ثم قال : وقصيدتي بتهنئة الملك فؤاد بعيد جلوسه فيها أبيات حسنة منها :

واضرب بسوط البأس أعطاف الزمان إذا استبدا

والملك فؤاد لو قال له قائل في أيام الخديوي عباس إنك ستكون مكانه لظن أنه يسخر منه ، ولكن هكذا الدنيا تخفض وترفع .

قلت : من الوفش الى العرش .

(١) هي (بلى) ولكن الدماشقة يزيدون في أولها ميماً ساكنة في كلامهم ولا يلتزمون الدقة في استعمالها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاستعاده وأعاده وقال : أهذا مثل ؟ يعجبني هذا المثل ، وجعله وسيلة للتندر على الملك فؤاد فقال : استدعى الملك في إحدى زياراته للاسكندرية قائد خفر السواحل وبدأ يوصيه وينبهه ، فكان مما قاله له : « خذ بالك ... إياك ... مهربين ... كوكائين ... سيف الدين[1] ... »

ولم يطل في إنشاد شعره بل عاد الى الحديث وكان يسرع في كلامه ، ويكاد يتكلم بيديه ورأسه وعينيه ، حلو الألفاظ ، يميل الى الدعابة والمزاح وإيراد النكات ، ولا يتأثم من التصريح بذكر ما يكنى عنه .

واسع الرواية للشعر والنثر ، يعتد بنفسه ، فخور بجيد شعره ، يدعي أنه أول من نظم الشعر الاجتماعي ، ولا ينكر أن له أشياء كثيرة من سخيف الشعر وسفسافه يدعوها (الشعر التجاري) ويدعي أنه كان يحفظ مائة الف بيت من جيد الشعر ، ولكن لم يبق منها في حفظه الآن إلا نصفها . يقدس المولدين من فحول الشعراء كبشار بن برد ومن أتى بعده ممن هو في طبقته ، مفتون ببلاغة العرب ، يجاهر بعجز المعاصرين عن إدراك شأوهم في التأدية والأسلوب ويقول نحن عيال عليهم ، ولكنه لا يستسيغ الشعر الجاهلي . ويتندر على العويص منه كما يتندر على اللين والركيك من الشعر المنثور .

تكلم حافظ كثيراً ولا سبيل لتدوين كل ما قال ، وإنما أثبت خلاصة حديثه . ذكر من الشعراء بشار بن برد وأبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام الطائي والبحتري والمتنبي والشريف الرضي وأبا العلاء المعري ومهيار الديلمي . فقرظ بشاراً كثيراً وروى من شعره . وأطنب في مدح أبي نواس وقال انه أطبع الناس على الشعر وهو أشعر الناس صاحياً ولكن قلما يصحو (ابن الكاب) وروى من شعره ، وكان شديد الإعجاب بقوله :

---

(١) سيف الدين : ابن عم الملك فؤاد كان اختلف وإياه قبل أن ينصب ملكاً فأطلق سيف الدين عليه الرصاص فأصابته رصاصة في عنقه فلم تقتله ولكن بقي يسعل من أثرها ، وفر سيف الدين من مصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ أمنتُ به من طارق الحدثانِ

تغطيتُ من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني

وأثنى على صريع الغواني مسلم بن الوليد ورفع كثيراً من قدر أبي تمام الطائي وأشاد بذكره وقال : « إنه شاعر العظائم وقصيدته في فتح عمورية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعبِ

كلها غرر وكلها عيون وما فيها بيت ساقط وليس للعرب مثلها » . ووقف وأنشد طائفة منها . ثم قال اذا سما أبو تمام فلا يدانيه أحد ، ولكن لم يخل شعره من السخيف . وروى له بيتاً هو :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

ودعاه بالشعر الأزهري وتلاه على طريقة المشايخ في الأزهر ، فقد كان يكرر الشطر وهو يقبل بصدره الى الأمام ويناى بظهره الى الوراء ويقول : ظاهر ؟

فلما أتى على ذكر البحتري قال لي : من تفضل من الشعراء الثلاثة ، أبا تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ قلت البحتري ، قال أنت شاعر والشعراء يفضلون البحتري ، البحتري سيد المطبوعين وأقدر الشعراء على حسن التأدية ، وشعره من السهل الممتنع . إذا تلوتُ شعره ظننتني أقعد في حضنه أداعبه وبداعبني وأفهم عنه ويفهم عني ، بل أحيط بما في نفسه كما يحيط بما في نفسي ، وهو يعطيك من المعنى بالرفق واللطف ، ما يعطيكه سواه بالعنجهية والعجرفة ولهجة الآمر أو الأستاذ شأن المتنبي ، والبحتري لا يأبه للتشبيهات والاستعارات ، بل يحدث عن ذات نفسه بلا كلفة ولا عناء ، وهذا هو الشعر ، والعجيب أنني لم أفقه ذلك إلا بعد أن بلغت من العمر خمساً وأربعين سنة ، أنا اليوم ابن أربع وخمسين سنة ، وقد قضيت عمري في الشعر ، رواية وقولاً ولم أحط بهذه الحقيقة إلا منذ عشر سنين ، عجيب غريب ... اسمع قول البحتري :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نظرتُ إلى طدان فقلت ليلى هناك ، وأين ليلى من طدانِ
ودون لقائها إيجاف شهرٍ وسبعٍ للمطايا أو ثمانِ
تصوبت البلاد بنا إليكم وغنّى بالإياب الحاديانِ

هذا هو الشعر . واسمع هذين البيتين المنسوبين لابن سينا في ولده :

ولي واحدٌ مثل فرخ القطا فيحنو عليّ وأحنو عليهْ
لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليّ ومني اليه

أنا أموت في مثل هذه الرقة ، هذا والله هو الشعر .

وأنشد لفتاة أعرابية قولها تشكو لأمها ريبة لمحتها في نظر محبوبها :

ورابني منه أني لا أزال أرى في طرفه قصراً عني إذا نظرا

فكان يقوم ويقعد ويتواجد ويقول « يابت كب[1] ، رحتِ في داهية ، جالك البلى ، كنتِ تحبين فتى كالسي علي » .

وكان يترنح طرباً ويهتز جميعه .

أما قول امرئ القيس :

اذا ما الثريا في السماء تعرضتْ تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأنا لا أفهمه كما اني لا أفهم قول محي :

« نامت الشمس وأرخى الشفق سدوله ولفقت حواشي السحب بخيوط الذهب والفضة وماجت في الأفق بحيرات الياقوت وبرك الزمرد .... »

ثم تناول المتنبي فقال : « أنا أحترم المتنبي كثيراً وأجله ، وإذا سمعته يقول :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحل الثاني

وقفتُ بين يديه وزررت معطفي ووضعت يدي على جيبي وقلت نعم صدقت . ألست ترى ان هذا البيت هو خطة حربية يلقيها القائد الأكبر على قواده

(١) يريد (يا بنت الكلب) كما يلفظها المصريون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورجاله ، نعم أنا أنحني أمام عظمة المتنبي ولكني أقول إنه لم يوفق الى ما وفق اليه البحتري من السلاسة والطلاوة والسهولة وحسن الديباجة . انظروا كم يستعمل المتنبي ذا وذي في شعره ، فهو أكثر الشعراء استعمالاً لها ، ولقد كان محمود سامي البارودي رحمه الله يقول لي : كأن المتنبي انكليزي لكثرة ما يتوكأ على ذا وذي .

أما الشريف الرضي فتستخفني رقته وانسجامه كما تبهرني قوته وإحكامه . أية فريدة تلك المرثية التي يقول في مطلعها :

مشابت الشيخ لا خامٍ ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباعِ

وقد حاولت أن أجاريه في رثائي للشيخ محمد عبده . فنظمت المطلع من هذا البحر وعلى هذا الروي ثم انقطعت ولم أقو على الاستمرار ، ولكن الله أعان ونظمت التائية :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النضراتِ

وهي من الغرر .

على أنني لا أرتاح لقصيدة الشريف الرضي التي يرثي بها أبا اسحق الصابي ويقول :

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياء النادي

الشريف الرضي كان يطمح الى الخلافة ، دخل عليه مرة فتى حسن الوجه مثل السيد علي (أفاهم أنت ياسي علي) وقبل يد الشريف فقال أبياتاً دعني أمثل لك الشريف في عظمته وزهوه وتيهه وأنشدها ، وهنا رفع حافظ رأسه وصعر خده ونظر شزراً وقبض أصابعه وأنشد برفق وتأن وصوت خافت :

ومقبلٍ كفي وددتُ بأنه أوما الى شفتيَّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول ورقة المملول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتلميذ الشريف الرضي مهيار الديلمي تعجبني رقته ، دعني أنشدك شيئاً من شعره بلهجته الفارسية . واندفع ينشد وكأنه فارسي ينشد شعراً عربياً :

آه على الرقة في خدودها لو أنها تسري إلى فؤادها
بالبان لي دين على ماطلةٍ يبيس غصن البان في أبرادها
سلطت الوجد على جوانحي تسلط الخلف على ميعادها

وأنشد أيضاً من شعر مهيار :

أيا صاحبي أين وجه الصبا ح وأين غدٌ صف لعيني غدا
أسدوا مسارح ليل العرا ق أم صبغوا فجره أسودا

وأعاد البيت الثاني غير مرة ماداً كلتا يديه ومحركاً أصابعه ثم قال : ولكني لا أقدر أن أجد في شعر مهيار من الرقيق البارع أكثر من مائتي بيت .

ثم قال : وأبو العلاء المعري ، حفظت في حداثتي من شعره ديوان سقط الزند . أما فلسفته فمبثوثة في اللزوميات ، ولقد كان يمجد الخالق ويشك في النبوات وينتقد الشرائع ويعرض بموسى ومحمد دون عيسى عليهم السلام ، لأنه يرى أن موسى ومحمداً طال عمرهما فأتيح لهما أن يعملا ما شاءا أن يعملا ، أما عيسى فهو صغير السن ولم يعمل شيئاً ، وانما انتقد أبو العلاء من جاء بعد المسيح من الأحبار الذين ألّهوه .

* * *

وانتقل حافظ من الشعراء الى المنشئين ، فذكر ابن المقفع وبراعة إنشائه فأطنب في مدحه وقال : أعدت قراءة كتاب كليلة ودمنة مرات كثيرة ، أكثر من مائة مرة .

ثم ذكر الجاحظ فقرظه كثيراً ونلا فقراً من كلامه وروى عنه نوادر مستملحة ، وكذلك قرظ أبا الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني وقال : انه قرأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأغاني مرات واستظهر الكثير مما فيه من الشعر وقال : إن إنشاء أبي الفرج غاية في الحسن والجودة ومحال أن يستبدل الانسان من إنشائه كلمة بكلمة . وحدث عن الصاحب بن عباد وما كان من كرمه وجوده ، وقص شيئاً من ملحه وطرفه .

وروى فقرة لاسحق الموصلي لم يبق في ذهني منها إلا قوله (أجد نفزاً في قلبي) قال : كنت مستلقياً على سريري وبيدي كتاب أقرأ فيه ، فلما مررت بهذه الجملة حفزني حافز ألقاني عن سريري فما وجدت نفسي إلا قائماً أرقص لحسن هذه الجملة الخلابة .

ثم نال من القاضي الفاضل وعاب أسلوبه في الانشاء وتعمله فيه ، وانحى باللوم كثيراً على سجع العماد الاصفهاني الكاتب وتكلفه . قلت لعلك تعني سجعه في كتابه « الفتح القسي في الفتح القدسي » قال : حفظت مائة ألف بيت وأنا عاجز عن حفظ مثل هذا الاسم .

وانتقل الى التحدث عن شوقي فأطال الكلام وانتقده انتقاداً لاذعاً وغمزه ولمزه وخلط الهزل بالجد وتندر عليه وشهد له في النهاية بالشاعرية المنقطعة النظير .

عاب كثيراً من شعره ونعى عليه أسلوبه وذم ألفاظه وسخر من تنطعه ، قال : ما رأيت أحداً يكثر من الدعوة الى مكارم الأخلاق كشوقي وهو الذي يقضي ليله طائفاً حوالي مواطن الريبة ومتنقلاً في عربات الترام .

بماذا يفسر قوله للخديوي عباس من قصيدة يمدحه بها :

أنا من ملكت فؤاده فافعل به ما أنت فاعلْ

أما قصيدته في بيروت فقد كشف الله بها عن حقيقة أمره في سوء مذهبه واضطراب قوافيه ، فبينا هو يقول في بيت : (عرفته)[1] يقول في بيت آخر

---

(١) إشارة الى البيت :

فازورّ غضباناً وأعرض نافراً حالٌ من الفيد الملاح عرفته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ملكوته)[1] ولا تسل عن مكارم الأخلاق حين يحدث عن أحور[2] بكفية وكيف زحمه .

وقصيدته في دمشق ، ما أشد تنطعه حين يقول :

لولا دمشق لما كانت طليطلةٌ ولا زهت ببني العباس بغدانُ

فمن أي معجم استدعى كلمة بغدان وفي أي ديوان وقع عليها وفي أي قاموس غاص حتى استخرجها هل رأيت شاعراً استعملها في شعره ؟ ليست البلاغة في استعمال المهجور من الألفاظ ، فأنا أحفظ من متن اللغة ما لم يقرأه شوقي ، ولا أستعمل في شعري إلا كل مأنوس قريب من الفهم ، فما قيمة الشعر إذا احتاج سامعه أن يرجع الى دواوين اللغة .

وما أعجب لشيء كعجبي لأهل الشام في غلوهم بالاحتفاء به ومبالغتهم في تكريمه ؛ وفي قصائدهم التي قالوها فيه ما هو أحسن من قصيدته . قلت ما أظن ذلك . قال : كذا كما أقول لك ؛ ولكن قل لي كيف أنشد شوقي قصيدته ؟ قلت أنشدها غيره وقعد هو بجانب المنشد . قال أف له من جبان ألكن ، لو كنت في دمشق بتلك الحفلة لأريتكم كيف يكون إنشاد الشعر ؛ ليس في مصر من يدانيني في الالقاء ، فاذا أنشدت الشعر في حفل أقمت وأقعدت وفعلت بالألباب ما شئت ، وكم شهد لي بذلك سعد زغلول .

قلت كان الشاميون يتوقعون زيارتك لهم ، ولو فعلت لاحتفلوا بك كثيراً . قال وهل يعرفونني ؟ قلت كيف لا يعرفونك ، وأكثر أدبائهم ومتأدبيهم

---

(١) إشارة الى البيت :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته

(٢) إشارة الى قوله :

وأغن احور من مها بكفيةٍ علقت محاجره دمي وعلقته

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فأتيت دون طريقه فزحمته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يروون شعرك ، قال ويحبونني ؟ قلت نعم . فتهلل وجهه وقال : كنت ناويا زيارة الشام في الصيف الماضي ، ولكن لما ذهب شوقي عدلت ، لم يكتف شوقي بالذهاب الى الشام وحده حتى استصحب معه محمد عبد الوهاب ، وكان هناك أحمد زكي باشا المسهب المكثار ، والدكتور محجوب ثابت وأمره معروف مشهور ، فكيف أدخل الشام ما دام هؤلاء فيها ، وما أدري ما قال أهل الشام عنهم ، ولكن لا بد لي من زيارة الشام في الصيف المقبل مع حسين بك .

ثم عاد الى نقد شعر شوقي فقال : يقول شوقي :

أأخون اسماعيل في أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا

كيف رضي لنفسه أن تلده أمه بالباب ، ولو كان هذا الأمر حقيقة لوجب كتمانه ، فكيف والحال هنا كناية عن أنه ربيب نعمة اسماعيل .

ويقول شوقي :

سلامٌ من صبا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ

والصبا الريح الشرقية وهي في دمشق ليست من الرياح الطيبة .

ويقول :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وهل الراحة الكبرى غير الموت .

ويقول :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافيا إلا الكتابا

وهو يريد أنه أخذ الكتب وترك الصحاب فاستعمل العكس لأنه لا يعرف أن الباء تدخل على المتروك .

ولقد أغرمي هذا الرجل بكلمة (لم) واختارها مطلعا لكثير من قصائده كأنها (حم) ، منها قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزاما

قم ناج أهرام الجلال وناد هل من بنانك مجلس أو ناد

قم حي هذي النيرات حي الحسان الخيرات

قم حي أنقرةً وقل ببنيكِ ملكٌ بنيت على سيوف بنيكِ

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمانُ

قم للمعلم وفِّهِ التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

فأي شاعر ارتكب مثل هذا ؟ قال لي محمد المويلحي : أخبرني كيف يقوم الانسان في فم الدنيا ويحيي الأزهر أهكذا ؟ ووضع حافظ سبابته معترضة في فمه بعد أن فغره .

لقد طبع شوقي الجزء الأول من ديوانه وقد ورد فيه من (قم) الشيء الكثير . أما جبريل فقد ردد ذكره سبع عشرة مرة منها قوله :

جبريل هلل في السماء وكبر واكتب ثواب المحسنين وسطِّرِ

جبريل أنت هدى السما . وأنت برهان العنايهْ

ولا تسل عن عيسى ، فما تكاد تخلو قصيدة في شعر شوقي من ذكره ، نعم أنا أومن بنبوة عيسى وموسى وسائر الأنبياء كما أومن بمحمد ولكنني أكتفي بمحمد وبما جاء به من الهدى .

يظن شوقي انه أمن عادية النقد في ديوانه وإظهار مساويه والتشهير بسفسافه بعد أن رشا أرباب الصحف ، فقد نظم قصيدة في رثاء ابن حسين هيكل رئيس تحرير السياسة أولها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الضلوع تنقدُ والدموع تطردُ

وأخرى في تقريظ كتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض صاحب كوكب الشرق وهي التي غلط في مطلعها فقال :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا

أما صاحب الكشكول فهو من حزبه . ولكن ما يصنع بالعقاد الذي أخذ أهبته وأعد عدته لنقد الديوان نقداً قاسياً لا مراعاة فيه ، وقد أزمع على أن يقدم بين يدي النقد فصلاً في حياة شوقي وهو إذا فعل فقد أصبح شوقي وديوانه هباءً منثورا .

وهنا عطف حافظ على العقاد والمازني والدكتور طه حسين فقال : العقاد كاتب مليح ألم تقرأ له شيئاً ؟ قلت : قرأت له الفصول ومطالعات ، قال هما كتابان جيدان . وأما المزني (المازني) فذاك سبّاب وأنا لا آبه له في كل ما انتقدني به وأخذه عليّ ، يكثر من الانتقاد ويعتبر الصواب خطأً ، وسبب ذلك قلة بضاعته من المعرفة ، فكل ما لم يحط به علمه يعتبره خطأً ، وما أقل ما يعلمه وأكثر ما يجهله ، وهكذا يكون هذا النوع من الناس ، يسرعون الى التخطئة لأن معرفتهم قليلة هزيلة ؛ فاذا أضيف الى ذلك سوء النية مثل صاحبه أقبح تمثيل . وكل نقد يوجه اليّ على تلك الطريقة أضعه تحت قدمي فأعلو به . وأما طه حسين فأسلوب عجيب ، اسمع اذا شئت : « تنكرون أن القضية هي قضية ، ولكم رأيكم في أنها ليست قضية ، ولنا رأينا في أنها قضية ، وانما نريد أن نتكلم من حيث أنها قضية ... » والحق إنه جاحظ هذا العصر في مقدرته وقوة طبعه ومطاوعة القول له وطول نفسه ، والحرب التي تدور رحاها الآن بينه وبين الرافعي من أجل الشعر الجاهلي شغلُ الصحف والنوادي الأدبية ، والذي يطيل عمر هذه الحرب أن طه حسين مهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هدر وهدد وتوعد وحشر ونادى لم يسمعه الرافعي ، وأن الرافعي مهما أرغى وأزبد وبرق وأرعد وصال وجال ولوّح بسيفه وهز برمحه لم ينظر طه حسين إليه ، والذي يعجبني من الرافعي أسلوبه العربي الخالص .

ثم عاد الى شوقي فقال : « ما قلته في شوقي وشعره قليل من كثير ، ولكنه بالرغم من كل ذلك شاعر عظيم ، ولقد شاء القدر أن يقرن اسمي باسمه ، فما يذكر شوقي إلا ذكر حافظ ، وما يذكر حافظ إلا ذكر شوقي ، كالنعل وشراكها والقبقاب وسيره ، ولئن أخطأ في بعض شعره فلم يخل شاعر من الخطأ ، أذكر من أغلاطي في اللغة قولي في مطلع قصيدة لي بذكرى شكسبير .

يجيبك من أرض الكنانة شاعرٌ شغوفٌ بقول العبقريين مغرمُ

فليس في العربية شغوف (وكنت أظنها صحيحة) بل مشغوف . ولم يظهر لي ذلك إلا بعد أن تليت القصيدة في الاحتفال الذي أقيم في بلاد الانكليز لمرور ثلاثمائة سنة على وفاة شكسبير وبعد أن نشرت في الصحف بزمن طويل .

على أن لشوقي من الإحسان ما يمحو له كل سيئة ، من ذلك أن له بيتين وددت لو كانا لي بنصف ديواني ، قلت ما هما ؟ قال قوله في قصيدته (ذكرى كارنافون) :

أفضى إلى ختم الزمان فقضه وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

ثم ذكر الشيخ محمد عبده فأثنى عليه وامتدح سيرته وحسن أخلاقه وعلمه وبلاغته وصحة ذوقه في الأدب قال : كنت والشيخ محمد عبده نجري في ليلة على قارب في النيل وكان أحد النوتية يغني (حار الفراش بهم للآن ما ناموا) فقال لي الشيخ : يا حافظ خذ هذا المعنى وانظمه فانه حسن . فنظمته في بيت من قصيدة :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم نظمته أيضاً في قصيدة ثانية وزدت عليه فقلت :

حار الفراش وحرت فيه فأنتما تحت الظلام معذب ومؤرّقُ

قال وكان الشيخ رحمه الله إذا استحسن شيئاً من شعري قال (مش بطال) لم يزدني على درجة (مش بطال) شيئاً .

وقال : سمرت ليلة مع الشيخ وبت عنده ، فلما كان الفجر قام الشيخ وتوضأ وصلى وطلعت الشمس وانتظر طويلاً حتى استيقظت ، فلما دخلت عليه قال لي : يا حافظ لم أتمكن على طول صحبتك لي من إصلاحك ، ولم تقدر على إفسادي .

ثم أتى على ذكر خليل مطران فلم ينله بسوء وقال : انه شاعر أديب وروى له فقرة بليغة من النثر ، ولما رآني استحسنت معناها قال : انه أخذ هذا المعنى من ڤيكتور هوغو ، ثم روى له مقطوعة من الشعر أولها :

أنا لا أخاف ولا أُرجّي فرسي مهيئةٌ ومسرجي

وقرظها وقال : قلت لخليل مطران ضع (خرجي) مكان (سرجي) لأنك متى قلت «فرسي مهيئة» علم بالضرورة أن السرج فوقها ، وإلا فما معنى تهيئة الفرس ، وخرج كلمة صحيحة فصيحة .

وعلى ذكر خليل مطران ، اختلفنا مرة في أينا أجمل وبعبارة أصح في أينا أقبح من الآخر ، فكنت أدعي أنني أجمل منه وهو أقبح مني ، وكان يزعم عكس ذلك ، وطال الخلاف بيننا حتى اتفقنا على أن نحتكم الى اسمعيل صبري باشا ونقبل بما يحكم به . فذهبنا اليه وشرحنا له دعوانا ، وبعد أن استقصى في سؤال كل منا عما يدعيه لنفسه وعلى خصمه ، وبعد أن أطال النظر في وجه كل منا ، أعلن ختام المحاكمة وأصدر حكمه بقوله : «حافظ ابراهيم أجمل قرد ، وخليل مطران أقبح إنسان» فانصرفنا وعند كل واحدٍ منا أنه حكم له على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صاحبه ، فانا أقول ان الحكم لي وهو يزعم أن الحكم له وما زلنا مختلفين في تفسير الحكم الى الآن . فما تقول أنت ، هل حكم لي أم عليّ ؟

قلت : بل حكم لك .

فقال : أصبت ، لأنه لما قال : « أجمل فرد » وصفني بالجمال على كل حال ، في حين وصف المطران بالقبح .

ثم سألني عن شعراء الشام وهل فيهم من يعادل شعراء مصر ، قلت : انهم يقدمونكم على أنفسهم ويعتبرونكم أئمة . ولكن عندنا من المنشئين من ليسوا دون منشئيكم . قال : مثل من ؟ قلت : مثل شكيب أرسلان ومحمد كرد علي قال : صحيح .

ثم قال لي : من هو الشاعر الشامي الذي ألقى قصيدة في الحفلة التي عقدت لخليل مطران بالقاهرة وقال في مطلعها :

مَشَتْ الى الأهرام أرض الشام لو تستطيع جوىً الى الأهرام

قلت شبلي الملاط ، قال هو شاعر ، ولكن ما أبشع ذاك المطلع .

ثم قال والشاعر الذي كان عندنا منذ سنة ؟ قلت لعلك تعني الزهاوي ، قال نعم . قلت ذاك عراقي وليس بشامي ، قال كله واحد . قلت لقد رأيت الزهاوي بدمشق بعد عودته من مصر واجداً في نفسه عاتباً عليك لأنك لم تزره . قال نعم ، الشعر الذي نشره عندنا ليس بذاك ، فضلاً عما فيه من الزندقة والإلحاد ، وهل في شرع الذوق والأدب أن يجيء الضيف مدينة إسلامية كالقاهرة بمحاربة الإيمان ومظاهرة الإلحاد ؟ لك أن تقول : في مصر أيضاً من يجاهر بالالحاد ويدعو اليه ، وجريدة السياسة ميدان يتبارى فيه دعاة الإلحاد ، وصاحبها حسين هيكل ينفخ في بوق الإلحاد ، تهاجم هذه الجريدة الإسلام في أصوله وأركانه ، والمسلمين في سننهم وعاداتهم ، وتدعو الى نبذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل ما هو شرقي والأخذ بكل ما هو غربي ، حملت منذ مدة هذه الجريدة على الطربوش ودعت الى لبس البرنيطة ، ولبسها أحد محرري الجريدة . نعم ذاك أمر تافه ولا يضر الإسلام في جوهره شيئاً ، ولكن الفلاح المصري لا يفهم من لبس البرنيطة إلا ترك الإسلام ، وليس من مصلحتنا أن نجعل هذه الملايين من الفلاحين تعتقد أننا تركنا الإسلام . ونعود الى الزهاوي ، لم أزره لأني كنت أيضاً غير مالك صحتي ، قلت : هذه إضافة زائدة . قال ماذا أصنع ، قلما تعتدل صحتي ، ولقد خلصت بمثل هذه المعذرة من رثاء سليم مركيس الذي أقيمت له حفلة تأبين منذ بضعة أيام .

وانتقل الى عبد المحسن الكاظمي فقال : شاعر قوي البديهة ولكنه منذ نزل مصر وقف حيث هو ولم يماش الزمن .

وروى بيتين للسيد توفيق البكري وقرظهما كثيراً ولكنه قال ان معناهما مأخوذ وذكر المأخذ .

وبعد أن طال السمر وانقضى أكثر الليل ودخل وقت السحور ، نهض حافظ وقال : لا بأس وإن طال السهر فان تحت التراب نوماً طويلاً .

ثم قال لي : ألا تزال مصراً على السفر ؟ قلت سأسافر الى الاسكندرية يوم غد إن شاء الله . قال سنراك هناك قريباً باذن الله ولعل ذلك يكون في العيد .

خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net